بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الواحد الأحد الموصوف بالكمال ، المنزِّل على رسوله شرع التيسير والكمال .

والصلاة والسلام على إمام المرسلين وسيد المتقين الجامع لقلوب الخلق على دين التوحيد ، المؤسس لهم كمال التشريع ، وعلى آله الطيبين ، وأصحابه المخلصين . ومن تبعهم بصدق إلى يوم الدين .

الحمد لله الذي هيأ للدين رجالاً جعلهم لحماية الشرع أنصاراً ، ووفَّقهم للذود عن الإسلام والقرآن صدقاً وإخلاصاً ، وحمّلهم بفضله أمانة الأحكام فكانوا لها دعاة وروّاداً .

أحمده سبحانه وأشكره أن أكرم في هذا الزمان شباباً مخلصين لدينهم ، صادقين في إسلامهم ، متفانين في خدمة شرعهم ، باعوا شبابهم لله لينالوا رضاه ، وجاهدوا في الله حق جهاده ليبلغوا هداه . منهم الشاب المؤمن المهندس (محمد تاجا) .

الذي بذل قصارى جهده في إظهار الإسلام وشرعه في أجمل بحث جامع . جمع فيه أنواع التيسير في بوتقة المحبة والتسامح والأُلفة بين المذاهب والفقهاء ، ودعا إلى نبذ التفرقة والتحاسد والبغضاء ، ووجَّه إلى جمع الكلمة على دين نزل كماله من السماء فكان ليله كنهاره في الضياء .

وجعل كتابه شاملاً لجمع وجهات نظر الفقهاء ، وتآلفهم على منهج القرآن والسنة ، نابذاً التعصب المذهبي لما يحمل من إِحَنٍ وعداوة وتفرقة مستنداً في ذلك على علوم الكتاب والسنة المصدر الرئيس لعلوم الشريعة والملة . ولقد وفقه الله أكمل توفيق إذ بيَّن أن اختلاف الأمة في الأحكام ليس هو للتفرقة ولا العداوة ، بل هو رحمة من الله لهذه الأمة ولتيسير أحكام التشريع لها معتمداً في ذلك على قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (١) .

وكم سررت عندما قرأت في كتابه ما أرشد به ووجه كل دارس ومطّلع إلى أن القرآن والسنة يدلاَّن الخلق إلى تحقيق السعادة المنشودة في الدنيا والآخرة، المرتكزة على صلاح الإنسان فرداً ومجتمعاً ، ليرتبط المجتمع بالإسلام فيكون كالجسد الواحد ، وإن البنّاء لهذه السعادة هم العلماء والفقهاء المخلصون الذين أعطوا المثال الرائع في تقديرهم لبعضهم ، وإظهار كمال المثالية في محبتهم لبعضهم وتعاونهم في استنباط الأحكام الميسرة مع إعذار بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه رأياً وحسب زمانهم ومكانهم .

ولقد تبين صدق إخلاص الكاتب بمراجعته لكتب الإخوة (الشيعة والزيدية) ليزداد اطِّلاعاً بسعة علوم الإسلام وما فيها من بحوث جعلت المسلمين يعيشون في بحبوحة من اليسر والائتلاف .

وما أروع ما جمع في هذا البحث الذي يشبه مائدة جمعت أنواع الأطعمة اللذيذة الفاخرة ، وكلٌّ يأخذ منها على قدر نُهمته وشهيته وطُلبته ، ولقد أَتقن بتوفيق الله له بحثه ببيان سبب الاختلاف بين الفقهاء، وأظهر صفاء قلوبهم وشفافية أرواحهم بعودتهم إلى تآلفهم واحترامهم وتوقيرهم لبعضهم كلٌّ يمدح الآخربما يليق بعلمه وكماله .

---

(١) سورة (البقرة/ ١٨٥) .

وإني لفخور بهذا الشاب المهندس الذي عرّف الإسلام بأنه دين التوحيد والوحدة ، وأنه يقوم على بناء شامخ من العزة والإباء والرفعة والمجد .

والذي غاص في دراسة العلوم فاستخرج منها لآلىء كمال وجمال أحكام التشريع في عصر الصحابة ثم نظمها في عقد نشأة المذاهب الفقهية في عصر التابعين وما بعدهم فكانت أجمل عقد نظمه برباط المذاهب بالكتاب والسنة والذي ظهر بعقد جمال التوسعة على المسلمين ورفع الحرج عنهم فكان بحق جمال لؤلؤ تزيَّن بجمال ماس وياقوت .

وننصف الكاتب الكريم حين نقول إن باكورة عمله المخلص في خدمة الإسلام التي أبرزها في رفض الجمود والتقليد والتعصب ، والتي أوقعت بعض التفرقة والعداوة بين بعض المنتسبين للعلم اتباعاً للهوى وحظ النفس وحب الظهور وجهلاً بالكتاب المجيد وعدم اطّلاع على السنة الشريفة إنه لجهد صادق في إظهار الإسلام بحقيقته وجوهره .

وإني إذ أشكر المؤلف محمد تاجا على ما قدمه للإسلام وللمكتبة الإسلامية من جهد بارع وحيد في هذا البحث أهيب به أن يتابع بحوثه ودراسته لخدمة دين الله مخلصاً لله في طلبه وعمله ليكتسب بفضل الله كمال رضاه .

والله أسأل أن يمتعه بكمال الإيمان والنضوج الروحي والفكري ليستمر بإمداد المكاتب الإسلامية بالبحوث القيّمة التي تحقق حفظ الإسلام والذكر الحكيم بالدعاة والعلماء المخلصين .

وأنعم به من شاب :

جمع الشباب والخشوع لديه ما أجمل الشُّبَّان في المحراب

المدرس الديني في إدارة الإفتاء العام بدمشق

الشيخ الدكتور رجب ديب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . أما بعد :

فإن الإسلام دين ارتضاه لنا رب العالمين ، بعد تمامه وكماله ، جاء لينقذ البشرية من الضلال إلى الهدى ، ومن التفرقة والتباغض والتحاسد إلى حياة ملؤها المحبة والسعادة والطمأنينة ، حتى أضحت أمتنا خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . .

من هذا المنطلق كان الواجب علينا أن نظهر حقيقة هذا الدين المبني على التسامح والمحبة والألفة ، حتى جعل الأمة الإسلامية كجسد واحد مصداق قوله ﷺ : « ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى »[1] .

ونحن الآن بصدد تعريف وشرح وجهة نظر الإسلام حيال التعصب المذهبي الفقهي الذي يُقَدَّم فيه قول إمام المذهب على قول الله تعالى ، وقول النبي ﷺ . ذلك التعصب الذي تبرأ منه القرآن الكريم ، فقال :

---

(١) البخاري ، محمد بن إسماعيل ، صحيح البخاري ، دار إحياء التُراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م ، رقم ٥٥٥٢ ، كتاب الأدب .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾[1] .

والإسلام لم يحرم الاختلاف في وجهات النظر ما دامت الأدلة الشرعية أساساً وسنداً قوياً لها ، وما دمنا لم يكفّر بعضنا بعضاً ، ولم يبتعد بعضنا عن بعض . .

وانطلاقي من هذا المفهوم ، وفق توجيهات وإرشادات القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، اللّذَينِ يصوران كيان الأمة على أنها الجبال الرواسي علماً وعملاً ، منطلقاً وحكمة . .

والاختلاف في وجهات النظر ، إنما هو للتيسير على الأمة في بناء كيانها ، لأن المجتمع يضم الصغير والكبير ، الجاهل والمتعلم ، العابد والعالم . . فقد ألف الله تعالى بهذا الدين بين قلوب مختلف أبناء هذا المجتمع دون مشقة أو عناء .

قال الله تعالى :

﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2] .

لقد كان توجيه الكتاب والسنة ، إلى ما فيه سعادة المرء في الدنيا والآخرة ، وهذه السعادة نابعة من صلاح الفرد والمجتمع حتى يكونوا كالجسد الواحد . . وأن الأئمة الفقهاء ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا مثلاً للحب والتعاون المثمر ، وعند الاختلاف كان يعذر بعضهم بعضاً ، فكلهم آخذ عن رسول الله ﷺ مبتغياً الحق ، راجياً مرضاة الرب عز وجل .

وقد صادفني صعوبة في الحصول على مراجع الشيعة و الزيدية ،

---

(١) سورة (الأنعام / ١٥٩) .

(٢) سورة (الأنفال / ٦٣) .

فعولت[1] في كتابتي على كُتب المرحوم الإمام « محمد أبو زهرة » .

وأخيراً نرى أهمية تبيان أسباب ومواضع الاختلاف ، ثم الوفاق والحب والاحترام بين الفقهاء . وهذا ما ننوي نهجه في هذا البحث والله الموفق .

وقد تضمن البحث :

مقدمةً : وتتضمن أسباب اختيار البحث وأهدافه .

تمهيداً : ويتضمن تعريفاً بحقيقة الإسلام ، الذي هو دين التوحيد . ومن هذا التوحيد كانت الوحدة فرضاً ـ على المخلوقين ـ من الله عز وجل ، وبذلك يقوم البنيان الشامخ الذي لا يعرف إلا العزة والإباء والمجد والرفعة .

قال الله تعالى :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[2] .

ثلاثة أبواب وتتضمن فصولاً ومباحث :

<u>الباب الأول</u> : كان في المذاهب الفقهية الإسلامية . وفيه فصلان :

أ ـ **الفصل الأول** : في نشوئها وتاريخها :

١ـ حال الفقه في صدر الإسلام ، في عصر النبوة والصحابة والتابعين .

٢ـ نشأة المدارس الفقهية : مدرسة الحديث ومدرسة الرأي .

ب ـ **الفصل الثاني** : وكان في أسباب الاختلاف الفقهي بين المذاهب :

---

(١) عَوّل عليه تَعْويلاً : استعان به . (القاموس المحيط : ٤/ ٢٣) .

(٢) سورة (آل عمران / ١٠٣) .

١ـ في دائرة القرآن الكريم .

٢ـ في دائرة السنة النبوية .

ذلك الخلاف الذي فتح باب التوسعة على الأمة وعدم الحرج واختيار ما هو مناسب .

الباب الثاني : وكان في اختلاف مناهج الفقهاء في المصادر التشريعية وأسباب التعصب المذهبي الفقهي . وفيه فصلان :

أـ **الفصل الأول** : في مدى الاحتجاج بالمصادر التشريعية ، واختلاف مناهج الفقهاء فيها ، ذلك الاختلاف الذي قدم ثروة فقهية أغنت المكتبة الإسلامية بمسائل لا نظير لها .

ب ـ **الفصل الثاني** : وكان في أسباب التعصب المذهبي الفقهي ، بدأ بالتقليد ثم بالجمود والوقوف عند كلام الإمام ، وربما معاداة كل من يخالف إمام مذهبه والنفور منه ، وساعده سوء الأخلاق والهوى وحب المناصب وما نشأ عن ذلك من شيوع للمناظرات والمجادلات ثم غلق باب الاجتهاد .

الباب الثالث : بيَّنا فيه أن الاختلاف في الفروع توسعة ورحمة ، وفيه فصلان :

أـ **الفصل الأول** : في فائدة التنوع الفقهي في الالتزام السلوكي في مجال العقيدة والعبادات . . وما كان للتنوع الفقهي من أثر ، وكيف كان إخلاص الفقهاء لله تعالى ثم أدبهم مع النبي ﷺ ثم أدبهم مع بعضهم بعضاً . وأن التنوع الفقهي دليل على الحيوية الفكرية وطلب الحق ، والتيسير على الأمة ، وما كان له من أثر على المفتي والفقيه وطالب العلم . .

ب ـ **الفصل الثاني** : عرضنا نماذج من الواقع المعاصر ، وهي عبارة عن لقاءات ومقابلات أجريت مع بعض كبار علماء الشام ، بحثنا فيها عن مسألة التعصب المذهبي الفقهي ، وكيفية علاجه ، وكيف عالجوه ، وهل نجحوا في ذلك ؟ .

ـ ثم كانت **الخاتمة** في عرض أهم النتائج التي توصلت إليها في حقيقة هذا الدين .

وأن المذاهب ما هي إلا حلقات لو جمعت لكانت الشريعة المطهرة بشموليتها .

وصدق من قال :

وكـلٌّهم من رسـول الله ملتمسٌ غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

ثم وضعت ورتبت فهرساً للآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأعلام ، ثم للمصادر والمراجع ، ثم للصحف والمجلات ، وأخيراً كان فهرس الموضوعات .

أرجو من الله العلي القدير أن يتقبل منا هذا العمل وأن يجعله عملاً خالصاً له وحده ، وكما قيل : لكل شيء إذا ما تم نقصان .

وقال رسول الله ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات** »[1] .

* * *

(١) صحيح البخاري : رقم ١ . كتاب الوحي . ومسلم ، أبو الحسين ، صحيح مسلم بشرح النووي ، دار الريان للتراث ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م ، رقم ٣٥٣٠ ، كتاب الإمارة .

تمهيد

الإسلام دين الوحدة والتوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الكون بما فيه خلق الله عز وجل الواحد القهار ، هذا الإله الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . .

وجاء الإسلام بالتوحيد لنبذ خرافة تعدد الآلهة . قال الله تعالى :

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾(١) .

وقال أيضاً :

﴿ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾(٢) .

هذا الإله الواحد هو الولي والوكيل على جميع الناس ، ولا يجوز لأحد أن يعتقد ويتوكل أو يرتبط قلبه إلا به سبحانه وتعالى :

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٣) .

هذا الإله الواحد في الاعتقاد يفرض علينا توحيد العمل ، أي أن يحب المسلم ربه ويخلص له ، ويعّول عليه في جميع أموره . .فيمتلىء قلبه

---

(١) سورة (الأنعام / ١٩) .
(٢) سورة (النحل / ٥١) .
(٣) سورة (الشورى / ٩) .

بعقيدة التوحيد قوةً وعزةً ومنعةً ، إيماناً راسخاً لا يشوبه شيء .

من هذا التوحيد للخالق جل وعلا تأتي الوحدة عطاءً للمخلوقين من الله عز وجل . . وهذا هو المحور الرئيس من محاور الإسلام والإيمان بالله عز وجل ، وبه يقوم ذلك البنيان الشامخ الذي لا يعرف إلا العزة والإباء والمجد والرفعة .

قال الله تعالى :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً ﴾[1] .

(والعصمة : المنعة ، وقال ابن مسعود[2] : حبل الله القرآن . وورد إن هذا القرآن هو حبل الله . . فالله تعالى يأمر بالأُلفة وينهى عن الفُرقة ، وإن الفرقة هلكة والجماعة نجاة . ورحم الله ابن المبارك[3] حيث قال :

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا منه بعروته الوثقى لمن دانا

ـ ولا تفرقوا ـ يعني في دينكم . . وكونوا في دين الله إخواناً ؛ فيكون ذلك منعاً لهم عن التقاطع والتدابر . .

---

(١) سورة (آل عمران / ١٠٣) .

(٢) عبد الله بن مسعود (ت : ٣٢هـ) : صحابي ، من أكابرهم فضلاً وعقلاً ، وقرباً من رسول الله ﷺ منذ كان في مكة ، ومن السابقين إلى الإسلام ، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة ، وكان خادم رسول الله الأمين وصاحب سره ؛ قال عنه عمر : وعاء ملء علماً ، ولي بيت مال الكوفة بعد وفاته ﷺ . له ٨٤٨ حديثاً . [الأعلام : ٤/ ١٣٧].

(٣) عبد الله بن المبارك (ت : ١٨١هـ) : أحد الأئمة ، لم يكن في زمانه أطلب للعلم منه ، صاحب حديث ، حافظ ، قال سفيان بن عيينة : كان فقيهاً عالماً عابداً شجاعاً شاعراً ، جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والشعر وقيام الليل والعبادة والحج والغزو والفروسية . . توفي سنة : ١٨١هـ . بعد أن صنف كتباً كثيرة في أبواب العلم . [الأعلام : ٥/ ٣٣٨] .

وفي قوله تعالى :

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [1] .

قال : ليس فيه دليل على تحريم الاختلاف في الفروع . . ومازال الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث وهم مع ذلك متآلفون ـ متواصلون ـ وقال رسول الله ﷺ :

« اختلاف أمتي رحمة »[2] . وإنما منع الله اختلافاً هو سبب الفساد . . والاختلاف في أحكام الفروع المحتملة وجوهاً فهذا جعله الله رحمة وكرامة للعلماء . . وقال : أهل العلم أهل توسعة وما برح المفتون يختلفون ، فيحلل هذا ويحرم هذا فلا يعيب هذا على هذا . . وهذا يدل على أن المراد اختلافهم في الأحكام الفرعية . .)[3] .

فمحور التوحيد هو الاعتصام بحبل الله عز وجل ، حتى تصير الأمة كلها وحدة متكاملة ، يُجير أدناها أعلاها ، وأفرادها سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى .

وكم نحن بحاجة إلى هذا المحور الذي يعيد الأمة إلى بنائها الحقيقي ، هذا المحور الذي يرتكز على اتباع منهج القرآن الكريم أولاً ، ثم سنة النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، ثم دراسة سيرة الصحابة رضي الله عنهم

---

(١) سورة (آل عمران/ ١٠٣) .

(٢) العجلوني ، إسماعيل ، كشف الخفاء و مزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، مكتبة الغزالي ، دمشق ، ١/ ٦٤ . [قال في المقاصد رواه البيهقي في المدخل بسند منقطع عن ابن عباس بلفظ ـ اختلاف أصحابي لكم رحمة ـ ومن هذا الوجه رواه الطبراني والديلمي بلفظه . وفيه : ضعيف] .

(٣) القرطبي ، أبو عبد الله ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الفكر ، ط١ ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ، ٤/ ١٥٨ .

وعلى آل بيت النبوة أجمعين ، كي نتأسى بأخلاقهم الفاضلة من حيث اتباعّهم للنبي ﷺ وتوادهم وتراحمهم لبعضهم بعضاً ؛ دراسة صافية لا يشوبها تعصب ولا تزمت ولا تأثر ، وبذلك تجتمع الأمة مصداقاً لقوله تعالى ـ في الآية السابقة ـ التي وصفت حال الأمة الإسلامية التي صارت بنعمة الله عز وجل إخواناً في الدين .(والإخوان جمع أخ . وسمي أخاً لأنه يتوخى مذهب أخيه أي يقصده)[1] .

* * *

(١) المصدر السابق : ٤/ ١٦٤ .